الفصل الثاني والعشرون

المكيدة

ولما خرج البرنس سكولوف وسمعت البارونة باذنها صوت اقدامهِ ينقطع خارج الرواق عمدت الى الشباك ورفعت زلاجهُ وهي تقول : —

— اخيرًا . اخيرًا تمكنت من الانتقام وادركت غاية القصد ومنتهى المرام . انهُ حيٌّ ! جون فاين باق حيًّا ! واطربا . ولكن كيف نجا كل هذه السنين الطوال ؟ لا بأس ! آه لو كنتَ باقيًا حيًّا ايها القائد غودارد فكنتَ ترى كيف أُبرّك مما اتهمتَ بهِ كذبًا وبهتانًا وظلمًا وعدوانًا ! على انهُ حسبي تشفيًا من ظالميك واثثارًا من العادين عليك ان أُري العالم ان شرفك الباذخ الذي يطاول الاطواد قد سلب منك على يد خائنٍ وغدٍ بل شرّ لخانة الاوغاد وسأقدم على ذلك من صباح غدٍ بملء التأهب والاستعداد . فلتبتهج عظامك داخل رمسك حيثُ شآبيب الرحمة والرضوان ولتطب في عالم الارواح نفسك انها اطيب نفسٍ حلت في جسد انسان

ثم استوت على كرسيها بجانب النار وادارت ظهرها الى الشباك ووارت رأسها بين يديها واذا بالشباك قد رُفع من الخارج رفعةً صحبها صوت خفيف فانفتح ودخل منهُ رجل بلباس احد اركان الحرب مزرّرًا الى عنقهِ ولثام مسدول على وجههِ . وكانت احدى ذراعيهِ مجروحةً وقد اسندها الى صدرهِ ورجلاهُ مشدودتين الى الركبتين بتعلين عليهما آثار ركوب طويل شاق

فرفعت البارونة يديها عن وجهها والتفتت اليهِ على مهل متبسمةً ولما وقعت عيناها على عينيهِ اجفلت مذعورة ونهضت على قدميها صارخةً : —

— او بين غودارد ! أنت ! حيٌّ ! هنا وتدعي بيأس مراد ! فما معنى هذا ؟

اما هو فلم يكن اقلَّ منها دهشة ورعبًا . ولذا تقدم نحوها صائحًا : —

— البارونة التدورف ! اصحيح هذا ؟ يالله : اذًا رأيتكِ ثانيةً ! اقليس هذا حلمًا ؟

فخفّت البارونة باسرع من وميض البرق الى الباب ومكنت ايصادهُ ثم عمدت الى الشباك واعادت زلاجهُ ورجعت الى غودارد واسرت اليهِ بتنهدٍ عميق : —

— ليتنا لا نستيقظ من هذا الحلم

فقال ما معرّبهُ : —

ولما التقينا بعد طول افتراقنا توهمت ان هذا اللقاء بيننا وهمي

فكلفتها اظهار ذلك قائلاً بعيشكِ قولي لي اما نحن في حلمِ
فقالت بلى . لا . لستُ أعلم فالذي توهمتهُ لاشك عندي وفي زعمي
وان تكُ ضمتنا بحلمٍ يدُ الكرى فطل يا كرى وارفع علينا يدَ الضمّ

ثم اصابهُ ذهول أنساهُ الغرض الذي جاء لاجلهِ فقال : —

— آه لو علمتِ كم توسلت الى الله ان يفسح في اجلي حتى اراكِ مرة أخرى ! وقد كان هذا الرجاء شغلي الوحيد طول مدة افتراقي عنكِ وانقطاعي لمجالدة الخطوب ومعاركة الارزاء وقد لمتُ نفسي اشد اللوم ورميتها بالحمق والغباوة على اذعاني لقولكِ وعدم بحثي عنكِ . نعم بحثت ولكن بعد مافات الوقت وكنت في بحثي اخيب من قابضٍ على الماء . ولما عزمتُ على الرجوع اليكِ لاعلن لكِ عدم استطاعتي انجاز ما وعدتكِ بهِ وجدتكِ قد ذهبت ولم تغادري وراءكِ اثرًا يدلُّ عليك او علامة تشير اليكِ

— رحماك اغفر لي يا اوبين ! ليتني عرفت هذا ! دعني اتكلم —

ليس الآن ! ليس الآن . بل دعيني اخبرك اوّلاً — قبل أن تلمس شفتاي شفتيكِ — باني تلفتُ وامتهنتُ واصبحت مضغة الافواه ولماظة الالسنة والشفاه وتعرّيت مما كنت مزدانًا بهِ من الصيت والجاه حتى شرفي — لا . لا . فهذا اطهر من ان تدنسهُ السنة الظالمين البغاة . لكنكِ تصدقيني اذا قلتُ لك اني لم اقترف ذنبًا يستوجب هذا الخذلان وانّ كل ما اصابني محض ظلم وعدوان

خلِّ عنك هذا الكلام لانك تكسر بهِ قلبي

— الم يبلغكِ كيف هاجرت انكلترا ولِمَ ؟

— بلى — لكن الآن

— اتظنينني اثيمًا فيما اتهمت بهِ ؟

— اني اعلم براءة ساحتك وكان العالم كلهُ يعلم هذا ايضًا لو جلوت المبهم ورفعت التهم

— ولكن الم تعلمي اني لم اقدر على شيء من ذلك ؟

— انك مخطئ ! ! ولا بدّ انك كنت حينئذٍ مختلّ الشعور حتى تغاضيت بهذا المقدار وجعلت سبيلاً لوقوعك بهذه الزلة واخذك بهذا العار . اجبني ! لماذا اراك ساكتًا ؟

ثم دنت منهُ والقت يدها على ذراعهِ المجروحة فعلّت وجههُ في الحال صفرة الموت وتلوّى من شدة الالم . فصاحت :—

— ماذا ؟ امريض انت ؟

— لا . لا . لاشيء يوجب الخوف. أعطيني قليلاً من الماء . لقد اصابني جرح خفيف من بضعة ايام . وفيما كنت راكباً الى هنا عثر بي جوادي واذ لم استطع التمؤط بسوى يدٍ واحدة سقطت عن ظهره الى الارض واظن ان سقوطي هذا نكأ الجرح فأساله . ولكن لاتجزعي . فلست اشعر بالم . ومن العيب ان كبوة طفيفة كهذه تعرضني للسقوط . ولعلّ ضعف جسمي يداعي النزيف حال دون تمكني على ظهر الجواد وافضى الى سقوطي . عمّ سألتني ؟

— قل لي اولاً اما انت احسن حالاً الآن

— بلى . بلى . اسمعي . سألتني لماذا لم اجل المبهم واوضح كيف حصلت على تلك الورقة والجواب اني امسكت عن ذلك حرصاً على شرفي او على شرف امرأةٍ وقد تجم هذا عن مكيدة لم استطع بيانها بالدليل . وهذه المرأة كانت مظلومة الى حدٍّ يتظلم منهُ الظلم وتتصدع لهُ الصخور الصمّ . وقد عرفتها منذ الطفولية وهي بائسة لامنقذ لها ولا معين . افتتجبين بعد هذا من اني رضيت تحمل العار في سبيل خلاصها ؟

— لكنها هي اخطأت في قبولها بهذا . وكيف أمكنها الصبر على رؤية تلفك وسقوطك ؟ ان هذا منتهى القساوة !

لا لاتُسرفي في لومها لانها غير ملومة وهب انها كانت ملومة فلا فائدة منهُ الآن . وقد اطلعتك على هذا لاني لم اقوَ على الافتكار بوجود ما يوجب الحذر بيننا . فقد كان معي ورقة مكتوب عليها بخط يدها جملة ليست في ذاتها شيئاً ولكنها كانت كافية لتمكين الالى نصبوا لنا المكيدة من ادراك بغيتهم . وهذا هو سرُّ التهمة . فهل لتقين بي الآن ؟

— كما بالله !

— ياحبيبتي !

ثم تعانقا عناق اهل الاشواق وتشاكيا تباريح الفراق . لكنها اذ شعرت بألمهِ الذي تمّ بهِ تصوُّرهُ على رغم تجلدهِ صاحت :—

— اراك متألماً شديداً فخبّي متى تخفي ذلك عني ؟

— يظهر ان الجرح بالغ وقد ألمني اكثر مما ظننت وسببهُ نقصان الدم فلا تدفني مني لئلاّ يروعك الامر

واذ ذاك طرق اذنها صليل اسلحةٍ خارج الغرفة استدعى انتباهها فصاحت : —

— ويلاهُ دنا الخطر ! يجب ان تجهد نفسك وتوطّنها على التجلد — على الفرار . ويلي فقد حاقت بك اسرار المكيدة ! الست قادراً على المشي ؟ اجتهد . تعالَ الى هنا الى مخدعي فليس

لك غير هذه الوسيلة للنجاة

— ما سبب وجودكِ هنا ؟ واين من جئت لكي اراها — الشيطانة الجميلة ؟ وما هذا السرُّ الغامض ؟

— خلِّ عنك محاولة فهمهِ الآن لانك ستفهمهُ فيما بعد . اتبعني على الفور

— ما مرادكِ بهذا ؟ فاستُ —

ثم ارتفع صوت شيء في الرواق . فقبضت البارونة باسرع من رجع النفس على ذراعهِ المجروحة فخرَّ الى الارض من شدة الألم وسقط مغشيًّا عليهِ لا يفيق ولا يعي . ولما رأتهُ على هذه الحالة اطلقت غدارتها طلقين واخرجت غدارتهُ من غلافها والقتها على الارض بجانبهِ وغطَّت وجههُ بلثامهِ . وحينئذٍ قُرِع الباب قرعًا شديدًا ودفع من الخارج بعنفٍ فانفتح ودخل البرنس سكولوف ولما راتهُ صرخت :—

— اغثني — بعيشك انقذني ! فانهُ لما رأى نفسهُ قد وقع في شركي حاول الفتك بي فاطلقت غدارتي واذ حاول الفرار ولم اقدر على صدهِ اطلقتها عليهِ ثانية فخرَّ صريعًا

— لقد اخطأتُ في تعريضكِ لخطر هذه المقابلة وحدكِ . وسأوصد الباب حتى لا يدخل احد قبل نقلهِ من هنا

وفيما هو متقدم نحو الباب بدا لهُ ما ارجعهُ فقال :—

— لعلهُ يكون مجروحًا فقط

قال هذا ودنا منهُ ووضع يدهُ على قلبهِ المنقطع عن الحركة وهمَّ بالرجوع عنهُ واذا بهِ نظر الغدارة على الارض فرفعها بيدهِ وصوبها نحو ذلك الصريع الذي لاحراك لهُ وقال : —

— الاصوب ان نتحقق موتهُ

— وفيما هو على اهبة اطلاقها وثبت الشيطانة ووقفت فوق الجسد المطروح وحالت بينهُ وبين البرنس وقالت : —

— لا . لا . كذبت عليك ! فقد خدعتكما كليكما !

ثم اماطت اللثام عن وجه غودارد فنظر اليهِ البرنس وصرخ :

— من هذا ! القائد غودارد !

— نعم ! نعم ! القائد غودارد ! اسمع . فلاجل أمر هذا الرجل وعدتني حياة انسان — اعدامها او العفو عنها حينما أريد وكما اشاء ؟ فاطلب حياتهُ

الفصل الثالث والعشرون

وجهاً لوجه

اما سكان المرقب السياسي فقضوا يومين كاملين في هياج شديد واضطراب ما عليه مزيد وكان اول امر اتاه البرنس سكولوف بعد رجوعه من عند الشيطانة الجميلة انهُ سعى على الفور في ارسال السيدة املي دشتون الى مدينة نيس. وقد اظهرت في البداءة عدم الميل الى هذه الرسالة لكن سكولوف تغلب عليها بما لديه من الوسائط وعللها بالاماني والآمال حتى اجابت طلبهُ بالطاعة والامتثال. ثم امدها بالوسائل اللازمة للرجوع باللورد اركنفورد الى لندن من غير ان يمكنها من معرفة ما حدث في مرقبه

اما دك سافيل وقرينتهُ فقد سرَّا بهذه الحادثة العجيبة سروراً يعجز القلم عن وصفه. وكان اول شيء فعلتهُ البارونة وكتي انهما انقطعتا للعناية بغودارد الذي قضى وقتاً ليس بقصير غائباً عن رشده في هذيان عميق

اما البرنس فلزم السكوت ولم يلجّ في طلب ايضاح هذا المشكل ولا الحّ في رفع النقاب عن محيَّا هذه الخفايا بل صبر على الشيطانة صبر الكرام وانتظر حتى طارحتهُ الكلام

وكان ذلك بعد ما ابلَّ غودارد وتعافى فدعت البرنس اليها فدخل وهي جالسة امام النار فمدت اليه يدها فقبلها بكل احترام. ثم قالت : —

— اجلس ايها البرنس فقد حان أن أطلعك على ما انت في اشتياق الى معرفته من زمان طويل

— بشرط ان يكون ذلك عفواً منكِ بلا اضطرار ولا اكراه

— ارعني سمعك فاحدثك بما يملأ الرضى والمسرة

— تكلمي فكلي مسامع

— هل ترتاب في ان قائد الفرقة الطيَّارة واوبين غودارد كانا شخصاً واحداً ؟

— كلاَّ

— الم تثق بانهُ ميت ؟

— بلى

— وماذا كانت نتيجة امره هنا ؟

— كانت بداءة الخاتمة ومنع الفرقة الطيارة من نيل مرادها في ايصال الذخائر والمؤن الى من هم في اشدّ الاحتياج اليها وذلك كلهُ نتج عن قبضنا على قائدها . ولا يخفى عليكِ ما ترتّب على ذلك من الفائدة التي لا تُثمّن

— اذًا هو عمل عظيم جدًّا

— نعم وهكذا الثمن الذي يُذل في سبيلهِ

— اي ثمن تعني ؟

— حياة قائد الفرقة — او بين غودارد — اعدامها او العفو عنها كما تريدين ومتى تشائين

— آه ان جِدًا كان من حسن طالع اللورد ارلنفورد ! فلو لم اطلب منك ان تُبقي على غودارد لطلبت منكَ إعدام ارلنفورد

— حقًّا لقد اوقعتني ايها البارونة في بحر حيرةٍ عميق لاقرار لهُ . فعند قدوم المستر ساقيل وقرينتهِ اعلمتِ انك تجهلين اللورد ارلنفورد ولا تعرفينهُ . وبعد خمس دقائق احدث فيكِ ذكر اسمهِ ارتعادًا لم اعهد لهُ فيكِ نظيرًا من قبل . اذًا اهتمامكِ مصروف نحو جون فاين — المدعو الآن اللورد ارلنفورد . و يظهر ان لديك اسبابًا تبعثكِ على بغضهِ وحب الانتقام منهُ . فهل لكِ ان تطلعيني على هذه الاسباب لأني اقدر أن أساعدكِ وأريد

— أنت ؟

— نعم فاللورد ارلنفورد — او جون فاين — كان مستخدمًا يومًا ما في بوليس بطرس برج السري —

— أعلم هذا !

— وقد طرد من منصبهِ لانهُ اتخذهُ وسيلة للانتقام —

— أعلم هذا !

— وقد اتهم رجلاً بريئًا بمواطأة دوروسكي على المبادىء النيهلستية

— أعلم هذا !

— تعلمين ! تعلمين ! كيف تعلمين ؟

— تسألني كيف اعلم ؟ تسألني لماذا آليت على نفسي الانتقام من هذا اللورد ارلنفورد ؟ خلِّ عنك هذا كلهُ واسألني بالاولى ذلك السؤال الذي قضيت في سبيل حلهِ وقتًا طويلاً وانفقتَ من اجلهِ مالاً جزيلاً ولم تستطع اليهِ سبيلاً . اسالني عن نفسي لعلك تعلم من انا؟

— لله انتِ ! فماذا تعنين بهذا ؟

— اعني اني انا البرنس كاريتا غالتزن !

— يا قديسة كاترينا ! ! !

قال هذا البرنس سكولوف ونهض ينفقد الابواب ليتحقق عدم وجود ثالث لهما يسترق حديثهما ورجع الى جانبها وانحنى قليلاً واخذ يتفرّس في وجهها وبعد ما تأكد انها هي البرنس كاريتا بعينها قبض على معصمها وقال لها بصوت منخفض واضح : —

— وانا الكس دورسكي

ثم استحوذ عليهما سكوت دام بضع دقائق . فنهضت البرنس غالتزن (لندعها الان باسمها الحقيقي) وضغطت صدغيها بيديها وشخصت في ذلك الرجل الذي بعد ما أمنها على سرّ حياته العظيم عاد الى مكانه وخاطبها : —

— اذاً اتضح الان سرّ آلة الكتابة السرية

— وهل يعلم ابن ديتري كيراتيف شيئاً عن هذا الامر ؟

— لا يعلم احدٌ سوى البرنس غالتزن وسكولوف رئيس البوليس السري

ولماذا أخبرتني ؟

— لان لي عندك رسالة

— نعم وهذه هي

ثم حلّت عرى صدريتها واخرجت طرساً مطوياً بحرص من غلاف صفيق وبعد ما نشرته وضعته امام سكولوف قائلةً : —

— اما هو مكتوبٌ بخط يدك ؟

— فاجابها مصحح — بخط يد الكس دورسكي النيهلستي وقد فقد من بين اوراق كيراتيف السرية . ولاجل الحصول عليه سعيت في ان خلفتُ ذاك الرئيس في منصبه . فانقطعت منذ ذلك الحين للتفتيش عن هذه الرسالة . ولهذه الغاية نفسها جعلت ابن كيراتيف كاتم اسراري . فلو عرفت من البدء انها عندك لأرحت نفسي من تحمل اتعاب كثيرة

— انها رهن امرك الآن

— الآن ؟

— قل لي بعيشك كيف اتفق أن يبقى جون فاين حيّاً مع انهُ شاع قبلاً انهُ قتل في تخوم بولاندا

— نعم هكذا شاع ولكنهُ اتضح اخيراً ان هذه الاشاعة كانت كاذبة وان الذي قتل

انما هو خادمهُ وقد قطعهُ اللصوص اربًا تعذَّر عندها معرفة القتيل . اما جون فاين فان علاقتهُ بفرقة البوليس الثالثة (السرية) مكنتهُ من الوقوف على المكيدة المنصوبة لهُ فركب سفينة طواف انكليزية من ظاهر قلعة شلسبرج ولما بلغ انكلترا استعان على اخفاء امرهِ بلقب اللورد ارلنفورد الذي انتحلهُ انتحالاً والقى بهِ اسم جون فاين . ولكني وقفت نفسي على تأثرهِ حتى احطتهُ بشبكة الوسائط الفعالة ومتى حان وقت اقتناصهِ فلا يرى لهُ مفرًّا من يدي فابطش بهِ وانال مقصدي

— ومتى يكون ذلك ؟

— هل يهمك التعجيل بهِ ؟

— يهمني جدًّا واودُّ لو في الامكان ان يكون الآن

— وكيف صبرتِ هذه السنين الطوال ؟

— مكرهة غير مختارة . هذا فضلاً عن اني لم اكن عالمة ببقاء هذا الاثيم حيًّا

— متى انتهت الحرب وصار القائد غودارد قادرًا على الذهاب معنا الى لندن فحينئذٍ نشرع في تمثيل الفصل الاخير من هذه الرواية . وقد ارسلت السيدة دشنوت الى بس وجهزتها بالمقدار الكافي من المال لاغراء ارلنفود وحملهِ على الرجوع الى لندن وجعلهِ في خوزتنا . وعهدت اليها بالبحث عن تفاصيل موت غودارد (الذي كان ميتًا فعاش) وحقًا اني كنت عزمتُ ان أقضي عشر سنين في محاولة الحصول على ذلك لكي أُريك شدة رغبتي في اتمام مأربي الشيطانة الجميلة . لكي اريكِ اني وان لم اقدر ان اكون محبكِ استطيع ان ابقى صديقكِ وحليفك . وستدوم قوتي وقدرتي وكل مالي من النفوذ رهن اشارتك كما لو كنتِ انتِ لي . هذا ولست انا ممن قلبهم في كمهم ولكني احبك ايها البرنسس حبًّا يقصرُ عن وصفهِ ابلغ الكلام . اما الآن فقد قضي الامر والأجدر بنا أن نطوي ثقة هذا الحديث ونتكلم عن شيءٍ آخر

ولما فرغ من كلامهِ نهضت الاميرة ودنت منهُ وجثت عند ركبتيهِ واخذت يدهُ بين يديها وقبلتها ذارفة عليها دمعةً أحرَّ من الجمر فعرا سكولوف هزة كما انتفض العصفور بللهُ القطر

ثم رفعت رأسها ونظرت اليهِ فانحنى بملء الاحترام وقبَّل جبينها قبلة كانت الفاتحة والخاتمة

نيوليون بونابرت

اللورد روزبري